القسم الثانى

صداقة وعداء وسط النكبات والهزائم

---

١ ــ فرنسا والحرب العالمية الثانية بين الديمقراطية والفاشية :

قامت الحرب العالمية الثانية وكانت فرنسا منقسمة فى الداخل : فالروح الرجعية التى تفشت فى عـــدة بلاد بأوروبا وأفريقيه ، وآسيا أخذت فى فرنسا مظهر العنف فى مظاهرات الكونكورد سنة ١٩٣٣ وهذه الروح لم تكن قد ماتت فى سنة ١٩٣٩ بل كانت تمثل مصالح وأغراض تلك الفئةالتى أشرنا إليهامن أساطين الصناعة الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ هذه البرامج ، وكانت هذه الفئة تؤمن بضرورة مسالمة برلين وروما ، لا حباً فيهما ، أورضوخا لإرادتهما بل لأن الوطنية تملى بأنه يجب تحمل كل شى فى سبيل السلم ، حتى تستكمل فرنسا بناءها الصناعى ولو كان فى ذلك الخروج من ميثاق عصبة الأمم ، أو إهمال المحالفات والضمانات القائمة .

٢ ــ صداقة بريطانيا :

يقابل هذه الروح تيار الديمقراطية ممثلا فى روح الجماعات

والأحزاب السياسية والبرلمان ، وكانت جميعا لاترغب فى الاندفاع طريق إلى غير مأمون العاقبة ، يفقد فرنسا مركزها الأدبى كدولة عظمى ، إذا حنثت بالمواثيق والضمانات المأخوذة ، أو ضربت بالمحالفات والمعاهدات عرض الحائط ، ويفقدها صداقة حليفتها بريطانيا ، تلك الصداقة التى بنيت عليها سياسة فرنسا منذ الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، وأكسبتها المواقف الاستعمارية فى مؤتمر الجزيرة ١٩٠٧ وأيام جادث أغادير فى مراكش سنة ١٩١١ وكانت العامل الأساسى لكسب حرب ١٩١٤ / ١٩١٨

٣ — أثر بريطانيا فى سياسة فرنسا :

وكانت هناك دواع تملى باستبقاء تلك الصداقة من الجانب البريطانى نفسه . فقد ظهر جلياً بعد تقدم الطيران ، وموقف إيطاليا المعادى أن أراضى الامبراطورية الفرنسية ستكون فى السلم والحرب الممر الطبيعى للطائرات البريطانية ، إذا تحاشت البحر الأبيض المتوسط . لم يكن من السهل إهمال علاقات هذا الجوار ، وما تمليه المصالح المشتركة للبلدين ، وما يفرضه تعاشق حقوق الارتفاق بين الأمبراطوريتين ، ولهذا لم تترك السياسة البريطانية هذه الناحية تسير طبقاً للأقدار بل مالت بقواتها وعبأت أساليبها المختلفة وعضدت الاتجاه المضاد للحركة الأولى ، وكان إن حكمت فرنسا حكومات

بقيت حريصة على محالفة بريطانيا ، وترتب على هذا أن دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية بجانب الامبراطورية البريطانية .

ومن هنا نفهم حقيقة العرض الذى تقدم به تشرشل قبل تسليم يونيه ١٩٤٠ واقترح فيه إدماج الأمبراطوريتين فى اتحاد واحد وهو العرض الذى توهم فيه الكثيرون بأنه كان عرضاً خيالياً لا يستند إلى أساس .

٤ — الحرب العالمية الثانية ٣٩ — ١٩٤٥ والمستعمرات الفرنسية .

جاءت الحرب وتتابعت شهورها الأولى . وتحملها الناس وطأتها على فرنسا ، وظهرت عيوب الأنظمة الفرنسية ، وتفكك الأحزاب الحاكمة ، وخيانة رجال الصناعة ، وقواد الجيش ، وتوالت الهزائم واضطرت فرنسا للتسليم عقب قتال لم يدم طويلا . وكان أن طرأ حادث غريب فى تاريخ العالم جاء نتيجة لإبرام عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا سنة ١٩٤٠ وهو أن يحتل العدو بلداً أوربيا أو جزءاً منه بجيوشه وتبقى أراضى المستعمرات من غير احتلال وليس فى ذلك من عجب إذا كانت الهدنة لوقف القتال ثم تعقبها مفاوضات الصلح وينتهى الأمر بإبرامه عقب فترة قصيرة من الزمن كما حدث سنة ١٨٧٠ ، أما أن تعقد الهدنة ويتضح من شروطها استثناء الأمبراطورية الفرنسية وبقاء جيوش الجمهورية للدفاع عنها ويستمر ذلك شهورا

ثم سنوات مادامت الحرب قائمة فأمر جديد أثار الكثير من المشاكل كلما بعدت نهاية الحرب .

فهناك فريقان يتحاربان حربا مميتة . وهناك أمبراطورية لدولة قبلت التسليم فما هو حكم الأراضى التى سلمت . أهى دار حرب وقتال ، أم هى على الحياد ؟ لاشك فى أن القسم الفرنسى الذى يشغله العدو بجيوشه هو دار حرب .

فما هو موقف القسم غير المحتل وأهم جزء فيه تلك الأمبراطورية بأقاليمها المتسعة .

٥ — هدنة سنة ١٩٤٠ ومستعمرات فرنسا :

كنت فى بيروت عند بداية الحرب وبعد عقد الهدنة ، ولقد شعرنا وشعر الناس جميعاً أن الحياد الذى أرادت فرنسا أن نظهر به غير موجود ، ولا يمكن التمسك به نظرياً أو عملياً فقد كانت الطائرات الإيطالية والألمانية تضرب فلسطين وكان بعضها يصاب بنيران المدفعية ، فيضطر للهبوط فى أراضى سوريا ولبنان ، فاتخذت السلطات الفرنسية معها فى الحوادث الأولى الإجراءات التى ينص عليها باب الحياد فى القانون الدولى ، وكان للألمان لجنة عليا فى فيسبادن ، تشرف على أمور الهدنة وتفسير شروطها . أبلغت هذه اللجنة الحكومة

الفرنسية رسمياً أن شروط الهدنة مع المانيا لا تجعل من فرنسا ومستعمراتها بلدا محايدا ، وما يسرى على المستعمرات يسرى على الأراضى المشمولة بالانتداب[١] ، وبناء على ذلك أفرجت السلطات السلطات العسكرية الفرنسية عن الطائرات والطيارين ، وسمحت بالمرور والنزول فى المطارات ، فكان من بريطانيا أن قذفتها بالقنابل ووجهت حملتها لاحتلال أراضى سوريا ولبنان .

٦ — حالة شاذة :

هذه الحالة الشاذة لأوضاع الأمبراطورية الفرنسية طول مدة الحرب أوجدت فى أراضيها نوعا من الحكم استفاد منه الفرنسيون للوقوف بين الفريقين المتحاربين ، ولو أنه أدى فى النهاية إلى خسارة أسطولهم ، واحتلال الألمان والطليان تونس ، إلا أن هذه الحالة لفتت أنظار الفرنسيين جميعاً للأمبراطورية وأثرها وأهميتها ، وما ينتظر منها ، وإنها قوة المستقبل ، ودرع الشعب الفرنسى ، وغير ذلك ، مما كانت تردده الصحف وتذيعه الأنباء المختلفة من محطات اللاسلكى .

انقسمت فرنسا إلى قسمين : حكومة فيشى وحركة الجنرال ديجول . واتفق كلاهما على أمر واحد وهو الاحتفاظ بوحدة الأمبراطورية ، وعدم التفريط فى أى جزء منها ، وترجع الأخطاء

(١) أى اراضى سوريا ولبنان

وأعمال العنف التى ارتكبها ممثلو فرنسا فى القطرين الشقيقين سوريا ولبنان إلى تمكن هذه الفكرة منهم ، تمكنا أعماهم عن تلمس الحقائق ومواجهة تطور العالم الجديد .

وأغرب من ذلك أن الحلفاء حينما وجهوا حملتهم إلى شمال أفريقية قام الكتاب الفرنسيون بحملة قلمية فى أنحاء العالم ، تقول : إن الأمبراطورية وشعوبها قد قامت تشد أزر الجنرال ديجول ، وأنها سارت تحت لوائه لإنقاذ أراضى الوطن المحتلة ، واتخذوا هذه هذه الدعاية دليلا على نفوذ فرنسا وقدرتها الاستعمارية . بل من هنا أخذوا ينادون بما صمموا عليه من إدخال سياسة الاتحاد الفرنسى وفرضها بقولهم : إن المستعمرات قد حلت عبء القتال عن الوطن الأورنى المحتل ، فهى إذن ساهمت فى تحريره ومن حقها أن تندمج فيه وتكون وحدة معه وتنقل هنا ما كتبه بول أميل قيار « لأول مرة سلم الوطن الأم وبقيت فرنسا تحارب فى مستعمراتها . »

٧ـ لماذا لم تحتل المانيا الأمبراطورية الفرنسية :

إن السياسة التى أملت على المانيا ترك الأمبراطورية الفرنسية تحت أشراف فرنسا بعد تسليمها لا تزال غامضة ، بل هى إحدى المعميات التى سيتسائل عنها مؤرخو الحرب طويلا ، فقد تكون

Pour la première fois la Mère patrie a capitulé , mais la France a continué a combattre dams see colonies „

هناك عوامل عسكرية أو سياسية فرضت هذه السياسة ، ومن المحقق أن هناك مفاوضات وأشياء لايزال العالم يجهلها تماماً .

فمن قائل أن التسليم قد تم على يد رجال يؤمنون بعظمة فرنسا إذا تخلصت من انظمتها الدستورية ، واتجهت اتجاها فاشيا ، فمن الطبيعى تشجيع هذه الحركة وإعطاء هؤلاء الناس بعض التساهل ، بترك المستعمرات لهم ، ومن قائل أن الغرض الأساسى الذى رمى إليه هتلر هو أن يجعل الأمبراطورية الفرنسية يوما ما فى صفه أمام الأمبراطورية البريطانية فى إفريقية وذلك لأن :

٨ — لفرنسا سياسة أوربية وللمستعمرات سياسة امبراطورية :

يقول أصحاب هذا الرأى أنه إذا كان لفرنسا سياسة فى القارة الأوروبية تعتمد على الأمن والضمان ، وهى تحتم التحالف مع بريطانيا وغيرها فإن للإمبراطورية بحكم موقعها الجغرافى ونفوذها وحاجاتها الاقتصادية سياستها الخاصة بها .

ويظهر ذلك جليا فى أن الفرنسى فى القارة الأوربية يعالج المشاكل بروح تختلف عن روح الفرنسى بالمستعمرات الذى يفكر بالاسلوب الأفريقى الاستعمارى وينظر إلى عظمة فرنسا فى امبراطوريتها ، نظرة بعيدة عن تطور السياسة الأوربية وماتفرضه من محالفات وصداقات .

فاذا تركنا جانبا المستعمرات البعيدة مثل مدغشقر والهند الصينية تبدو الامبراطورية الفرنسية لعقول هؤلاء كوحدة جغرافية لها أهمية كبرى ،وهى فى نظرهم كائن حى، له ما لفرنسا من مشاكل متعلقة بالأمن والحماية والجيش والبحرية .

وقد تتفق السياستان وقد تختلفان فى الشئون الخارجية . أما فى الشئون الداخلية فقد ظهر أثر الرجال الفرنسيين المقيمين بالمستعمرات فى محاربة كل إصلاح يرمى إلى إشراك الوطنيين فى الحكم[1] بل فرضوا إرادتهم واجبروا الحكومة المركزية على تغيير سياستها مرارا ، ولذلك توهم المختصون بشئون الاستعمار أن لا مخرج لهم من هذا التعارض سوى سياسة الاتحاد ، التى تجعل من فرنسا والامبراطورية كتلة واحدة فى الخارج والداخل لها سياسة واحدة .

وكان من رأى الذين لمسوا هذا النزاع القائم أن المشاكل الأقليمية والحربية فى سيرها وتطورها تواجه فى النهاية مصالح الأمبراطورية البريطانية فى إفريقية وأكبر ضربة لهدم التحالف الفرنسى البريطانى تأتى من تشجيع فرنسا للأخذ بسياسة امبراطوريتها ، فى الأمور الخارجية وبنوا نظريتهم على ما يأتى :

---

(١) لا يزال هذا النفوذ قائما وهو يعطل ويقضى على كل سياسة تقارب نحو ابناء المغرب

٩ — المتناقضات القائمة بين امبراطوريتين عالميتين

فقالوا ان سياسة الوفاق والصداقة سهلة وتبدو ضرورية فى أوربا ، ولكنها صعبة وغير محتمله فى افريقية ، أو إذا سار التحالف بانسجام هنا فإنه لايسير أشواطا بعيدة فى إفريقية ، من غير أن تبرز المتناقضات وهى الأمور التى تطور الى مشاكل أو ازمات ، فيستعصى حلها ، لأن مردها إما إلى السياسات العليا او إلى القواعد الثابتة لطبائع الأشياء ، وعلى هذا الضوء تبدو حوادث سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣ ومشاكل بريطانيا فى طرابلس الغرب ، وبرقة فى الوقت الحاضر ، وتعذر ايجاد حل لها .

١٠ — أمل المانيا فى استغلال التنافس بين الدولتين

كان الألمان على إلمام تام بالحالة النفسية والعسكرية فى الجيش الفرنسى ، وبما يمكن أن تؤديه الفرق المكونة من الجنود الافريقية وعلى يقين من طاقة هذه الشعوب المستعبدة ومقدار صلاحيتها للحروب الحديثة ولذلك أبقوا على وحدة الامبراطورية الفرنسية وتركوها بيد الفرنسيين احتملوا ابقاءها لأنهم توهموا ان التنافس بين البريطانيين والفرنسيين قد ينقلب إلى عداء وقد مرت حوادث كانت نتيجتها التصادم والقتال ولكن الامبراطورية الفرنسية لم تتحرك ، بل إن القتال الذى نشب فى سوريا ولبنان انحصر هناك

(١) حررت بريطانيا اراضى سوريا ولبنان وهى تحاول إيجاد حكومة فى برقة وطرابلس فتقاومها فرنسا . هذه المتناقضات مما يتعذر الاتفاق عليها

أما من الناحية الفرنسية فقد تمكن الأمل من القواد والساسة لدرجة أنهم توهموا أن لديهم القوة الكافية للدفاع عن الامبراطورية اذا هوجمت وحشدوا وحداتهم البحرية فى شمال افريقيه أملا فى الخروج إلى السلم بالسيادة على البحر وحدود المستعمرات كما كانت قبل الحرب بل كانوا يتبجحون بأنه إذا لزم الأمر أن يقبلوا التضحية عند إقرار السلم مع المانيا فلتكن التضحية من الأراضى الأوروبية إذا ضمنوا المحافظة على وحدة أملاكهم الافريقية التى هى المدى الحيوى التاريخى للشعب الفرنسى وهو الزمهم من مقاطعات الشمال .

ومن الغريب أن هذا الأمل الألمانى وهذا المنطق الفرنسى ترك شمال افريقية فى حالة سهلت للحلفاء احتلالها واتخاذها بمرافئها لجمع قواتهم التى زحفت الى قلب اوربا فكان أن ساهمت الامبراطورية الفرنسيه فى تحرير اوربا بل فى تحرير العالم ولكن كبقعة متسعة من الأرض استعملت كمسرح للحوادث والمعارك كأى بقعة من بقاع الشرق الادنى .

١١ — الحلفاء يسيطرون على أملاك فرنسا ثم يعيدونها إليها

تمزق السور الفولاذى لأول مرة عند دخول الحلفاء وقواتهم أراضى شمال افريقية فرأى اهل مراكش وتونس والجزائر جنودا من عناصر اخرى غير فرنسية ولابد انهم لمسوا وعاينوا اشياء جديدة ولكن البلاد التى خضعت لسنوات عديدة لاعمال العنف

والتشريد كانت تتمخض بانبعاث جديد ووثبة شاملة ولم تكن حملة الحلفاء لتخلق هذا الوعى القائم لولا أن لهذه الشعوب من الشخصية والتاريخ مايجعلها تحس وتشعر بالرسالة التى تحملها للعالم وجاءت حملة الحلفاء لهذه الأرض باساطين العالم وكانت مقر مؤتمرات وعرف الناس جميعاأن اراضى تونس والجزائر ومراكش اصبحت وديعةفى يد الحلفاء وقد اعيدت لفرنسا بعدأن تعهد رجالها لروزفلت أن تسير هذه البقاع فى ركب الحضارة نحو الحرية وتقرير الصير كغيرها من بقاع الدنيا التى يسكنها الانسان لا الحيوان

(اعود الى الوراء ام عصر جديد) هذه كلمة الاستاذ اسماعيل مظهر حينما عرض الى مشروع الاتحاد الفرنسى ونحن نتفق معه فى صيحته ونقول

ان الخطر الذى يبدو لنا هو ان توفق فرنسا فى اقناع العالم ان الاتحاد الفرنسى هو مشروع انسانى يدعو الى رفع مستوى شعوب الامبراطورية ويعد تنفيذه تحقيقا لما وعدوا به روزفلت فى اجتماع الدار البيضاءاوانه مرحلة فى طريق الرقى الاجتماعى كما تعهدوا.(١) ولكن فكرة الاتحاد قديمة وسنعرض لها فى الجزء الاخير من هذا البحث ونبرهن انها اخطر بكثير مما تتصور وانها ضربة موجهة لاستقلال الشعوب وحريتها ومستقبلها وانها اخطر طعنة يوجهها الاستعمار الأوربى فى افريقيا موطن الشعوب المظلومة .

---

(١) تبدلت الأوضاع فى السنوات الاخيره وحدث ماكنا نخشاه .